

القسم الرابع

في نوادر الخليفة المهدي

أبو دلامة والمهدي

ولد لأبي دلامة ابنة ليلاً فأوقد السراج وجعل يخيط خريطة من شقيق فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي واستأذن عليه وكان لا يمنعه الدخول فأنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قومٌ لقيـل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج

إلى السماء فأنتم أكرم الناس
قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة فما الذي غدا بك إلينا؟ قال:
ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين، قال: فهل قلت فيها شعراً؟ قال: نعم
قلت:

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيمُ
ولكن قد تضمك أم سوء إلى لباتها وأبٌ لثيمُ

فضحك المهدي وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها، قال تملأ هذه يا
أمير المؤمنين وانهار إليه بالخريطة بين إصبعيه، فقال المهدي وما عسى أن تحمل
هذه، قال من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير فمر أن تملأ مالا، فلما نشرت
أخذت عليه صحن الدار فدخل فيها أربعة آلاف درهم، فضحك المهدي حتى
استلقى على قفاه.

أبو دلامة والمهدى

وكان المهدى قد كسا أبا دلامة ساجاً فأخذ به وهو سكران فأتى به إلى المهدى فأمر بتمزيق الساج عليه وأن يسجن في بيت الدجاج، فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سكره ورأى نفسه بين الدجاج صاح يا صاحب البيت فاستجاب له السجان وقال: ما لك يا عدو الله؟ قال: ويلك من أدخلني مع الدجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج، قال له: ويلك أوقد لى سراجاً وجتنى بدواة وورق فكتب أبو دلامة إلى المهدى:

أمن صهباء صافية المراج	كان شعاعها لهب السراج
تهش لها النفوس وتشتهيها	إذا برزت تترقق في الزجاج
أمير المؤمنين فدتك نفسى	علام حبستنى وخرقت ساجى
أقاد إلى السجون بغير ذنب	كأنى بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لهان ذاكم	ولكنى حبست مع الدجاج
دجاجات يطيف بهن ديك	ينادى بالصياح إذا يناجى
وقد كانت تخبرنى ذنوبى	بأنى من عذابك غير ناجى
على أنى وإن لاقيت شرأ	لخيرك بعد ذاك الشر راجى

ثم قال: أوصلها إلى أمير المؤمنين فأوصلها إليه السجان فلما قرأها أمر بإطلاقه وأدخله عليه فقال له: أين بت الليلة أبا دلامة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين، قال: فما كنت تصنع؟ قال: كنت أقوى معهن حتى أصبحت، فضحك المهدى وأمر له بصلة جزيلة وخلع عليه كسوة شريفة.

المهدى وأبو دلامة الشاعر

لما اتصل بالمهدى خبر وفاة والده بمكة المكرمة اشتد منه الحزن واءبرجت عيناه بالدموع وقال: إن رسول الله قد بكى عند فراق الأحبة ولقد فارقت

عظيمًا وقلدت جسيمًا وبينما كان المهدي جالسًا للتعزية بوالده والتهنئة بمبايعته دخل عليه أبو دلالة فأنشد:

عيناى واحدة ترى مسرورةً بإمامها جذلى وأخرى تطرفُ
تبكى وتضحك مرة ويسوءها ما أنكرت ويسرها ما تعرفُ
فيسوءها موت الخليفة محرماً ويسرها إذ قام هذا الأرافُ
فأجزل له العطاء وكان أول من وصله.

المهدي والأعرابي

قيل: إن المهدي قعد قعودًا عامًا للناس فدخل رجل في يده نعل ومنديل فقال: يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها إليك، قال هاتها فدفعها إليه فقبل باطنها ورفعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما أخذها وانصرف قال جلسائه: أترون أنى لم أعلم أن رسول الله ﷺ لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها، ولو كذبناه لقال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله ﷺ فردّها على فكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره إذ كان من شأن العامة وأشكالها النصرة للضعيف على القوى فاشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله ورأينا الذى فعلنا أنجح وأرجح.

كرم المهدي

نزل المهدي بمنزل بعبساباذ لما بناها وأمر أن يكتب له أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار فكتبوا ودعى بنقبائهم وجلس مجلساً عاماً لهم ففرق ثلاثة آلاف درهم فأغنى كل فقير وجبر كل كسير وفرج عن كل مكروب، ثم قامت الخطباء ودخل الشعراء فأنشدوه ففرق فيهم خمسمائة ألف درهم، فكثر الداعى له فى الطرقات والبوادي وقام فى هذا اليوم مروان بن أبى حفصة فأنشده:

ما يلمع البرق إلّا حنّ مغتربُ
 كأنه من دواعي شوقه وصبُ
 ما أنسَ لا أنسَ غيثًا ظلَّ وابلهُ
 على من راحة المهدي ينسكب
 شيئًا فما أخلفتنا من مخائله
 سحابة صوبها الأوراق والذهب
 صدقت يا خير مأمون ومعتمد
 ظني بأضعاف ما قد كنت أحسب
 أعطيت سبعين ألفًا غير متبعا
 منّا ولست بمنان بما تهب
 قد لاح للناس بالمهدي نور هدى
 يضيءُ والصبح في الظلماء يحتجب
 خليفة طاهر الأثواب معتصمُ
 بالحق ليس له في غيره أرب

المهدي والواقدي

قال الواقدي: دخلت على المهدي بمحبرة ودفتر وكتب عني أشياء أحدثه
 بها ثم نهض وقال: كن مكانك حتى أعود إليك ودخل دار الحريم ثم خرج
 متنكرًا ممتلئًا غضبًا فلما جلس قلت: يا أمير المؤمنين خرجت على خلاف
 الحال التي دخلت عليها، قال نعم دخلت على الخيزران فوثبت إليّ ومدت
 يدها وخزقت ثوبي وقالت لي يا قشاش وأي خير رأيت منك؟ وإنما اشتريتها
 من نخاس ورأت مني ما رأت وعقدت لابنيها بولاية العهد ويحك وأنا
 قشاش، قال: قلت يا أمير المؤمنين قال رسول الله ﷺ: «إنهن يغلبن الكرام
 ويغلبهن اللثام» وقال: «خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي»، وقال:
 «خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته»، وحدثته من هذا الباب بكل

ما حضر لي فسكن غيظهُ وأسفر وجههُ وأمر لي بألفي دينار، وقال أصلح بهذه من حالك وانصرفت، فلما وصلت إلى منزلي وافاني رسول الخيزران فقال تقرئك السلام سيدتي وتقول: يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير المؤمنين فأحسن الله جزاءك وهذا ألفا دينار إلا عشرة بعثت بها إليك لأنني لم أحب أن أساوى صلة أمير المؤمنين، ووجهت لي بأثواب.

المهدى وأحد العبيد

أهدى له بعض العبيد عصيدة فاشتري الضيعة التي فيها ذلك العبد والعبد بألف دينار وأعتقه ووهبه الضيعة وأقدمه المهدي ببغداد ثم رده المدينة لنام رآه.

المهدي والمؤمل

قال المؤمل بن أميل: قدمت على المهدي وهو بالرى وهو إذ ذاك ولي عهد فامتدحته بأبيات فأمر لي بعشرين ألف درهم فكتب بذلك إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره فكتب إلى كاتب المهدي أن توجه إلى الشاعر، فطلبت فلم يقدر على، وكتب إلى أبي جعفر أنه قد توجه إلى مدينة السلام فأجلس المنصور قائداً من قواده على جسر النهر وان أمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً فجعل لا يمر به قافلة إلا تصفح من فيها، حتى مرت به القافلة التي فيها المؤمل بن أميل فتصفحهُ فلما سأله من أنت؟ قال أنا المؤمل بن أميل المحاربى الشاعر أحد زوار المهدي، قال إياك طلبت، قال المؤمل فكاد قلبى يتصدع خوفاً من أبى جعفر فقبض علىّ وسلمنى إلى الربيع، فدخل على أبى جعفر وقال: هذا الشاعر قد ظفرنا به، قال أدخلوه إلىّ فدخلت إليه وسلمت عليه تسليم مروع، فرد السلام وقال: ليس ههنا إلا خيراً أأنت المؤمل بن أميل، قلت نعم يا أمير المؤمنين، قال أتيت غلاماً غراً فخدعته، قلت نعم أصلح الله أمير المؤمنين أتيت غلاماً غراً كريماً فخدعته فأنخدع، قال فكأن

ذلك أعجبه، فقال: أنشدني ما قلت فيه فأنشدته:

هو المهديُّ إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
مشابهُ ذا وذا فيما إذا ما	أنارا يشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل	وهذا في النهار ضياء نور
ولكن فضل الرحمن هذا	على ذا بالمنابر والسرير
وبالملك العزيز فذا أميرٌ	وما ذا بالأمر ولا الوزير
ونقص الشهر يحمداً ذا وهذا	منيرٌ عند نقصان الشهور
فيا ابن خليفة الله المصفي	به تعلو مفاخرة الفخور
لئن فقت الملوك وقد توانوا	إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك أبوك حتى	بقوا ما بين كاب أو حسير
وجئت مصلياً تجرى حثيثاً	وما لك حين تجرى من فتور
فقال الناس ما هذان إلا	كما بين الفتيل من النقيير
فإن سبق الكبير فأهل سبق	له فضل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مداً كبير	فقد خلق الصغير من الكبير

فقال له المنصور: والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم وأين المال؟ قلت ها هو ذا، فقال يا ربيع امض معه فأعطه ألف درهم وخذ منه الباقي ففعل الربيع ما أمره المنصور، ثم إن المهدي ولى الخلافة بعد ذلك وولى ابن يونان المظالم فكان يجلس للناس بالرصافة فرفعت إليه قصة فلما وصلت إليه قصتي ضحك، فقال له ابن يونان أصلح الله أمير المؤمنين ما رأيتك ضحكت من شيء إلا من هذه القصة، فقال نعم هذه رقعة أعرف قصتها، ردوا عليه عشرين ألف درهم فردوها إلى فأخذتها وانصرفت.

جود المهدي

خرج المهدي ذات يوم متزهاً إلى الأنبار، وبينما هو في مجلسه دخل عليه الربيع ومعه قطعة من جراب فيه كتابة برماد وخاتم من طين عجن بالرماد

وهو مطبوع بخاتم الخلافة فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعجب من هذه الرقعة جاءني بها أعرابي وهو ينادى هذا كتاب أمير المؤمنين المهدي دلوني على هذا الرجل الذي يسمى الربيع فقد أمرني أن أدفعها إليه وهذه الرقعة، فأخذها المهدي وضحك وقال: صدق وهذا خطي وهذا خاتمي أفلا أخبركم بالقصة، قلنا: رأى الأمير أعلى منا في ذلك، قال: خرجت أمس إلى الصيد في غب سماء فلما أصبحت هاج علينا ضباب شديد وفقدت أصحابي حتى ما رأيت منهم أحداً وأصابني من البرد والجوع والعطش ما لا يعلمه إلا الله وتحيرت عند ذلك فذكرت دعاءً سمعته من أبي يحكيه عن أبيه قال إذا أصبح وإذا أمسى: بسم الله وبالله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقى وشفى وكفى من الحرق والغرق والفرق والهدم وميته السوء، فلما قتلها رفع لى ضوء نار فقصدتها فإذا بهذا الأعرابي في خيمة له يوقد ناراً بين يديه، فقلت أيها الأعرابي هل من ضيافة، قال انزل فنزلت فقال لزوجته هات ذلك الشعير فأتت به فقال اطحنيه فابتدأت تطحنه فقلت له اسقني ماءً فأتاني بسقاء فيه مذقة من لبن أكثره ماء فشربت منها شربة ما شربت أطيب منها وأعطاني حلساً له فوضعت رأسي عليه ونمت ثم انتبهت فإذا هو قد وثب إلى شاة فذبحها فإذا امرأته تقول له ويحك قتلت نفسك وصبيتك إنما كان معاشك من هذه الشاة فذبحتها فبأى شيء تعيش، فقلت لا عليك هات الشاة فشققته جوفها واستخرجت كبدها بسكين في خفي فشرحتها ثم طرحتها على النار فأكلت ثم قلت له هل عندك شيء أكتب فيه، فجاءني بهذه القطعة، فأخذت عوداً من الرماد الذي كان بين يديه فكتبت له هذا الكتاب وختمته بها الخاتم وأمرته أن يجيء ويسأل عن الربيع فيدفعها إليه فإذا في الرقعة خمسمائة ألف درهم، فقال لا والله ما أردت إلا خمسين ألف درهم ولكن جرت يدي بخمسمائة ألف درهم ولا أنقص والله منها درهماً واحداً ولو لم يكن في بيت المال غيرها حملوها معه، فما كان إلا قليلاً حتى كثرت إبله وصار منزلاً من المنازل يتزله كل من أراد الحج من الأنبار إلى مكة المكرمة وسمى مضيف أمير المؤمنين المهدي.

المهدى والمختبئان

لما فرغ المهدى من بناء عيساباذ ركب فى جماعة يسيرة لينظر البلد، فدخله مفاجأة وأخرج من كان هناك من الناس وبقي رجلان خفيا عن أبصار الأعوان فرأى المهدى أحدهما وقد دهش بالعقل فقال من أنت، قال أنا أنا، فقال ويلك من أنت، قال لا أدري، قال ألك حاجة، قال: لا لا، قال: أخرجوه أخرج الله نفسك، فدفع فى قفاه، فلما خرج قال لغلام له اتبعه من حيث لا يعلم فسل عن أمره ومهنته فإنى أخاله حائكا فخرج الغلام على أثره، ثم رأى الآخر فاستنطقه فأجاب بقلب جرىء، ولسان سليط، فقال: من أنت؟ قال: رجل من أبناء رجال دعوتك، قال: من جاء بك إلى ههنا؟ قال: جئت لأنظر إلى هذا البناء الحسن فأتمتع بالنظر وأكثر الدعاء لأمير المؤمنين بطول المدة وتمام النعمة وغناء العز والسلامة، قال: أفلك حاجة، قال: نعم خطبت ابنة عم لى فردنى أبوه وقال لا مال لك والناس يرغبون فى المال وأنا بها مشغوف ولها وامق، قال: قد أمرت لك بخمسين ألف درهم، قال جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين لقد وصلت فأجزلت الصلة ومننت فأعظمت المنة فجعل الله باقى عمرك أكثر من ماضيه وآخر أيامك خيرا من أولها ومتعك بما أنعم به عليك وأمتع رعيتك بك، فأمر أن تعجل له الصلة ووجه بعض خاصته وقال: اسأل عن مهنته فإنى أخاله كاتبًا، فرجع الرسولان معًا فقال الأول وجدنا الأول حائكا، وقال الآخر وجدت الرجل كاتبًا فقال المهدى لم تخف على مخاطبة الكاتب والحائك.



المهدى وشعبة الشاعر

كان شعبة شاعرا متشاغلا بالعلم لا يكسب شيئا من الدنيا وكان له إخوة يقومون بأموره، واشترى أحد إخوته من السلطان طعاما فخر به فحبس، فقدم شعبة على المهدى وكان له على أخيه ستة آلاف دينار، فلما دخل قال:

يا أمير المؤمنين أنشد قتادةُ وسماك بن حرب لأمية بن أبى الصلت شعراً في عبد الله بن جدعان التيمي:

أذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياءُ
وعلمك بالحقوق وأنت فرعٌ لهُ الحسب المهذب والسناءُ
كريم لا يغيره صباحٌ عن الخلق الجميل ولا المساءُ
بأرضك كل مكرمة بناها بنو تيمٍ وأنت لها سماءُ
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناءُ

فقال: لا يا أبا بسطام لا تذكرها قد عرفناها وقضيناها لك ادفعوا إليه أخاه ولا تأخذوا منه شيئاً.

المهدى وإبراهيم بن طهمان

كان لإبراهيم بن طهمان جراية من بيت المال فاخرة وكان يفخر بذلك، فسئل يوماً في مجلس الخليفة، فقال لا أدري، فقالوا تأخذ في كل يوم كذا وكذا ولا تحسن مسألةً، فقال إنما أخذت على ما أحسن ولو آخذ على ما لا أحسن لفنى بيت المال ولا يفنى ما لا أدري، فأعجب أمير المؤمنين جوابه وأمر له بجائزة فاخرة وراد في جرابته.

المهدى وأبو العتاهية الشاعر

قال أشجع السلمي الشاعر المشهور: أذن الخليفة المهدى للناس في الدخول عليه فدخلنا مع أبى العتاهية فأمرنا بالجلوس، فاتفق أن جلس بجنبى بشار بن برد وسكت المهدى فسكت الناس فسمع بشار حساً فقال لى: من هذا، فقلت أبو العتاهية، فقال أترأه ينشد فى هذا المحفل، فقلت أحسبه سيفعل، قال فأمره المهدى فأنشد:

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلاً له ولم يك يصلح إلاً لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعهُ بناب القلوب لما قبل الله أعمالها

فقال لى بشار: انظر ويحك يا أشجع هل طار الخليفة عن فراشه، قال
أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن ذلك المجلس بجائزة غير أبى العتاهية.
